لماذا الهجرة إلى الحبشة ؟ (3)

نشر بتاريخ 27 إبريل 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

قلنا إنه على الرغم من بعض السلبيات العديدة التي كان يكتنف الهجرة إلى الحبسة إلا كانت الحبشة هي الخيار الاستراتيجي للهجرة الأولى، وطرحنا هذا السؤال: ماذا كان يميز الحبشة لتكون الخيار الاستراتيجي عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للهجرة ؟

أجمع عدد من المؤرخين وكتّاب السيرة النبوية أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اختار الحبشة للأسباب التالية:

أولاً: عدل حاكم الحبشة؛ وكان واضحًا عندما قال النبي صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم ولا يستطيع أن يكفهم عنهم: "إن بالحبشة ملكًا لا يظلم عنده أحد، فلو خرجتم إليه حتى يجعل اللّه لكم فرجًا". أخرجه البيهقي في السنن. فلم يعلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على شيء في حياة هذا الرجل ولا دينه، إنما فقط علق على عدله، وكان واضحًا ذلك عندما أرسلت قريش وفدًا مكون من عمرو بن العاص رضي اللّه عنه وعبد اللّه بن أبي ربيعة للتفاوض مع النجاشي على تسليم المهاجرين، وعلى الرغم من علاقة الصداقة التي كانت تربط النجاشي

وعمرو، وعلى الرغم من كل تلك الهدايا التي أرسلتها قريش للنجاشي لاستمالت قلبه، إلا أنه لم يتخذ أي قرار ولم يأخذ بكلام الصحابي عمرو بن العاص رضي اللّه عنه مباشرة وإنما طلب أن يسمع كلا الطرفين وأن يواجه كل طرف الآخر بالحجة والنقاش المباشر، وبعد أن سمع الطرفين اتخذ القرار الذي وجده صائبًا، وهذا هو العدل.

ثانيًا: أهل الحبشة هم أهل كتاب؛ وإن كان هناك انحراف واختلاف في عقائد أهل الكتاب إلا أنهم النصرانية – ربما في ذلك الوقت – أقرب وأكثر عطفًا وذلك مصداقًا لقوله تعالي في سورة المائدة – الآية 82 (لَتَجِدَنّ أَشَدّ النّاسِ عَدَاوَةً لِلّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدّةً لِلّذِينَ آمَنُوا الّذِينَ قَالُوا إِنّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ).

ثالثًا: الحبشة بعيدة عن مكة؛ وإن كانت هذه واحدة من النقاط الضعف التي ذكرناها آنفًا، وذلك لبُعد المسلمين المهاجرين عن مركز الإسلام الذي كان هو القرآن الكريم ومن ثم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إلا أنه في ذات الوقت كان هذا المكان يوفر جانبًا كبيرًا من الأمن للمهاجرين بعيدًا عن بطش أهل الباطل في مكة وما حولها من الأماكن التي يمتد إليها نفوذهم. بالإضافة إلى أمر مهم هو أن قريش مهما كانت قوتها وحتى إن تمكنت من الاستعانة بكل القبائل العربية فإنها لن تتمكن من مهاجمة الحبشة مهما حدث، وذلك بسبب عظم مملكة الحبشة وجيشها وكذلك ذلك

الحاجز البحري – البحر الأحمر – الطبيعي الموجود أصلاً بين الجزيرة العربية وأفريقيا.

رابعًا: الحبشة بلد مستقل؛ وإن كانت الحبشة من الناحية الدينية تتبع الكنسية المصرية في الإسكندرية، إلا أنها كانت مملكة مستقلة من الناحية السياسية والعسكرية، وهذا يعني أنه ليس هناك خطورة من أن يملي قيصر الروم أو كسرى فارس أو غيرهم رأيًا على أهل الحبشة والنجاشي.

خامسًا: الحبشة بلد تجاري وصاحب قوة اقتصادية؛ لم تكن الحبشة في ذلك الوقت تعاني من أزمات اقتصادية أو سياسية، بل كانت تُعد ذات قوة اقتصادية معقولة، لذلك لم يكن يخشى عليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن تعاني من أي أزمات اقتصادية نتيجة قدوم المهاجرين، إذ أن هذا الأمر يمكن أن يؤدي إلى بعض الاضطرابات والمشاكل الاقتصادية التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث شقاق بين أهل الحبشة والساسة وبالتالي مع قرار النجاشي في بقاء المسلمين في الحبشة، وهذا يمكن أن يؤدي إلى بعض الاضطرابات السياسية في الحبشة، وهذا أمر مرفوض لديه صلى اللّه عليه وسلم، فهو يريد للحبشة ما يريده للمسلمين هناك، الأمن والأمان.

ويمكن أن نلاحظ أن المسلمين لم يجلسوا عالة على كرم النجاشي وأهل الحبشة، وإنما قاموا بالعمل والإنتاج، فقد اشارت العديد من كتب السيرة

أن أم سلمة رضي اللّه عنها – مثلاً – قامت – وهي متخصصة في المصنوعات الجلدية – بتعليم الصحابيات العمل وبيع المنتجات الجلدية على نساء وأهالي الحبشة، وكان من ذلك الكثير.

سادساً: المباغتة في الاختيار؛ كل ما ذُكر أمور مهمة، ولكننا نحسب أن من أهم الأمور الاستراتيجية التي فكر بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يفكر بها غيره، هي المباغتة، فلم يكن أحد يتوقع هذا الاختيار، فقد كانت الحبشة خارج نطاق أي حسابات. والمباغتة تعني المفاجئة، ومفاجئ الخصم بما لا يتوقعه، أي أتاه على حين غفلة وعلى غير انتظار أو توقع.

ومباغتة الخضم يحتاج إلى طاقات قيادية ذكية وابتكارات لا حدود لها، فقد يكون الخداع بتطمين العدو كيلا يتوقع الضربة. فعامل المفاجأة كثيراً ما كان العامل الحاسم في الانتصارات العسكرية وفي قلب الموازين وشلل العدو وارباك ردود أفعاله.

لذلك نجد أن الرسول الكريم صلى اللّه عليه وسلم أخذ بالأسباب المـُعِينَةِ على مواجهة هذا الحال المتأزم والوضع المأساوي، من خلال التفاته إلى أساليب جديدة وأماكن جديدة وخطط جديدة، مستفيداً من الواقع القائم من حوله، فكانت الهجرة إلى الحبشة أنموذجاً لهذا التعاطي الإيجابي مع المحنة، الواقعي في تخطيطه، المتاح في إمكانياته، المحقق للقدر المعقول من أهداف حَمَلَة الرسالة، حيث عجزوا عنها في مكة، فجاءت الإشارة منه إلى أتباعه للهجرة إلى الحبشة، وهي يومئذ دار كفر، فليس

اختياره صلى اللّه عليه وسلم للحبشة اعتباطًا منه، فقد تمت العملية استناداً إلى معرفة وتقدير للأوضاع المحيطة ببيئته الاجتماعية والدعوية.

يتضح لنا من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقًا كل تلك القدرة المذهلة التي كان يتمتع بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على التحليل ودراسة واقع الحال، وهذا من مميزاته القيادية.